جُهُودُ عُلَماءِ الشّيعَةِ في تَفْسيرِ القُرآنِ وَتَجْديدِ مَناهِجِهِ

(تفسيرُ تَقْريبُ القُرآنِ إلى الأَذْهَانِ)

لسماحة العلامة السيد محمد الشيرازي قدس سره ـ أنموذجا)

عرض

الشيخ الدكتور فاضل الصفار

كربلاء المقدسة ـ العراق

التمهيد

اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الرسل بشرا يوحى إليهم فكانت الحاجة إلى الآيات تبين صدقهم فكانت المعجزة قرينة الرسالة فلولاها لأشكل الآمر على الناس، ومصطلح المعجزة لم يظهر ألا بعد نزول القرآن وإنما عبرت عنها الآيات والروايات بالآية، والبينة، وبالبرهان، وبالسلطان)، لتضمُّن هذه الألفاظ معاني الإعجاز، لقد اتفقت الكلمة على انحصار الطريق الى معرفة صدق دعوى الأنبياء بظهور المعجز على أيديهم (وطريق معرفة صدق ظهور المعجزة على يده)[1]، وهو المرتكز في أذهان البشر، ولذا كان أول نداء يطلقه الكافرون في مواجهة دعوى الرسل والأنبياء وهو المطالبة بإظهار الآيات و المعاجز، فكل حرف وكلمة وجملة وآية وسورة بل كل حركة وسكنة ورفع ونصب في القرآن الكريم يدل على إعجاز وعلوً وسمو، فهو كما قالوا عنه: ليست معجزة واحدة فحسب بل موسوعة معجزات، فاجتماعياته معجزة لعلماء الاجتماع، وسياسياته معجزة للسياسيين، وأخلاقياته معجزة للأخلاقيين، وعسكرياته معجزة للعسكريين، واقتصادياته

(١) تجريد الاعتقاد: ٢١٤.

معجزة للاقتصاديين وتربوياته معجزة للتربويين، وفوق ذلك فهو معجزة الغيبيات والابحاث العقلية، فهو كتاب اعطى الفلسفة الكاملة الصحيحة للبشر فهو كتاب الكون، بل هو عدل الكون إذ الكون كلَه كلمة من كلمات الله، والقرآن كلمة اخرى من كلمات الله فهي وتلك كلمتان مترادفتان، الكون والقرآن ولكن بمظهر تكويني، والقرآن كون ولكن بمظهر تكويني، وبعد ذلك وقبله فإن من القرآن ما فيه الشفاء والرحمة للعالمين ولا يزيد الظالمين الا خسارا، ولكل اختصاصي معجزة في اختصاصه، بل إن القرآن معجزة لكل إنسان في الجانب المنسجم من أولويات ذلك الإنسان، فهو معاجز الخلائق، لان كلمات القرآن وآياته وحروفه وكل ما فيه ينطق بأنه وحي ممَن خلق الأرض والسموات العلى وما خلقته عقول البشر، أو فاهت به ألسنتهم.

المبحث الأول: الإعجاز لغة واصطلاحا:

المعجز في اللغة له أكثر من معنى الا أن الأقرب منه إلى الفهم العرفي ما ذكر في أقرب الموارد، وهو: (أعجز فلان أي صيَّره عاجزا)[٢].

لكن في مجمع البحرين فسره بالمعنى المصطلح عليه وكآنه تفسير بالمصداق، فقال: المعجز: الأمر الخارق للعادة المطابق للدعوى، المقرون بالتحدي، وقد ذكر المسلمون للنبي صلى الله عليه وآله الف معجزة منها القرآن[٣] وقد عرف بتعريفات مختلفة بعض الشيء باختلاف قيودها. ففي تجريد الاعتقاد: وطريق معرفة صدقه ظهور المعجزة على يده، وهو ثبوت ما ليس أو نفي ما هو معتاد مع خرق العادة ومطابقة الدعوى[٤].

وقريب منه ما في مجمع البيان: وحاصله أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق النواميس الطبيعية ويعجز عنه غيره، شاهداً على صدق دعواه[٥] وينبغي إضافة قيد التحدي لهذين التعريفين لينطبق على موازين الحد التام المنطقي، هذا وهناك

(٢) اقرب الموارد: ج٣، ص٤٨٢، مادة (عجز).
(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٥(عجز).
(٤) تجريد الاعتقاد، ص٢١٤.
(٥) مجمع البيان: ١/ ١٥.

شروط أخرى ينبغي توافرها في الإعجاز منها: مطابقة المعجزة للدعوى، وأن يكون هناك من يعارض مدعى النبوة فيما يتحدى به، بحيث يستطيع غيره إن يأتي بمثل ما أتى به إذ لا يكون حينئذ ما أتى به ذلك النبي معجزا ومن المناسب أن نشير هنا إلى بعض مزايا القرآن الكريم التي اتفق أهل الرأي فيها على انها إعجاز:

١. إن القرآن الكريم معجز من حيث اختصاصه بمرتبة عليا في الفصاحة والبلاغة خارق للعادة لأيمكن لأحد أن يأتي بمثلها أو أن يدانيها.

٢. من حيث كونه مركَبا من نص الحروف الهجائية التي يقدر على تأليفها كل أحد ومع ذلك عجز الخلق عن تركيب مثله بهذا التركيب العجيب.

٣. من حيث امتيازه عن غيره من كلام العرب بامتياز مليح لأنه نوع ثالث من كلام يجمع نوعي الكلام العربي ليس بشعر ولا نثر وتنطبق عليه خصوصية كل منها فالشعر يقرأ باللحن والصوت الجميل، والنثر يستعرض الافكار دون نظم والكلام لا يخلو من احدهما لكن القرآن توافر على الخصيصتين وهذه ميزة فاق بها الكلام ولغاته.

٤. وما تضمنه من الأخبار في قضايا الأمم السالفة، وخفايا القصص الماضية، وعلى الرغم من سعة مضامينه ووفرة آياته وكثرة سوره فهو خال من الاختلال والتناقص والتهافت ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[سورة النساء: ٨٢] وبهذا فاق الكلام منطقيا لان الكلام عند المناطقة إما إخبار أو إنشاء إلا أن كلام الوحي تضمن الاثنين في سياق واحد فكثيرا ما ترد آياته بصيغة جملة خبرية تتضمن الإنشاء وبالعكس نظير قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾فإنها في الوقت الذي تخبر عن نفي الشك والارتياب فيه لدقة نظمه وعلو مضامينه وسمو الفاظه تلزم الناس بالتصديق به والاذعان له.

ومن هنا قسم الأصوليون الخطابات الشرعية على أربعة أصناف من الجمل، جمل خبرية محضة، وإنشائية محضة وخبرية في مقام الإنشاء وإنشائية في مقام إخبار، وهذه

ميزة خاصة بالوحي الإلهي.

٥. من حيث اشتمال القرآن الكريم على احسن الآداب، وأمتن الحكم، وأكمل المواعظ، وأصوب القوانين، وأتم الأحكام في العبادات والمعاملات والمعاشرات في أمور الحياة والأسرة والمجتمع، وفي الحدود والأقضية في السفر والحضر والأمن والخوف والسلم والحرب والعسرة والغلبة.

٦. من حيث اخباره عن ضمائر المنافقين وبواطن الكافرين ونوايا المشركين الخفية التي لم يطلع عليها احد. بل اخبر عن الامور المستقبلية والحوادث المقبلة والغيب الصادق والنبأ المطابق مما لم يطلع عليه الا علام الغيوب مع كمال المطابقة والصدق كما في قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[سورة القمر ٤٥]، وقوله تعالى ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [سورة الفتح: ٢٧] إلى غير ذلك من ألآيات الكثيرة هذا فضلا عن أخباراته عن الحقائق العلمية التي لم ينكشف اليسير منها الأ في الاونة الأخيرة والقرون المتأخرة على رغم تطور العلوم والمعارف.

٧. من حيث خواصه المعنوية وخصائصه الذاتية في التأثير في الارواح، وشفائه للقلوب والضمائر، وعلاجه للأجسام، وطمأنته للقلوب، وبركاته في النفوس، فضلا عن الآثار الوضعية الأخرى التي تلازمه في النظر والقراءة والاستشهاد والاحتفاظ ونحو ذلك.

٨. من حيث طراوته وحلاوته وعدم الملل منه عند تلاوته وقراءته مهما زادت وتكررت، فهو كلام الله البالغ، وحكمه الساطع، وهو نور لا يطفأ، وسراج لا يخبو كما ورد في خطبة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة[٦] إلى غير ذلك من جهات و أسرار لا يسع المجال لبيانها هنا.

(٦) نهج البلاغة: ص٣١٥، الخطبة، ١٨٩.

المبحث الثاني: المسار التاريخي لاهتمام الشيعة بالقرآن الكريم وتفسيره:

إن القرآن الكريم احدث في المجتمع البشري أعظم انقلاب وتغير شمل كل مناحي الحياة، وامتد شعاعه إلى ابعد الأصقاع وأذهل أقوى الأدمغة، واكتسح أعظم الحضارات، وأقام فوق ركامها أنظف حضارة وأجمل حياة وأكمل سيادة وسياسة. هذا وقد كانت للشيعة اليد الطولى والسهم العظيم في الاهتمام به، والعمل على دراسته وتفسيره، وبيان معانيه ومضامينه، واكتشاف أسراره وآياته وبيناته بهدى من ائمتهم عليهم السلام الذين هم عدل القرآن وأهله الذين انزل القرآن في بيوتهم. فكتبوا ونشروا وحثوا ايما حث على قراءته وحفظه ونشره وتجويد الاستناد إليه في كل حقول المعرفة، وكان السبب في اهتمام الشيعة بالقرآن في الدرجة الأولى هو أهمية القرآن نفسه وعظمة أمره، ثم الإقتداء بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام في ذلك.

فمن ينظر في الأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام والتي تحدثوا فيها عن القرآن الكريم يواجه عناية بالغة وكبيرة منهم بهذا الكتاب الإلهي الخالد، ثم من يطلع على بقية أحاديثهم في شتى جوائب الدين يجدها مليئة بالاستدلالات من القرآن الكريم مما يكشف عن شدة حرصهم على البقاء الى جانب القرآن والانطلاق منه والرجوع اليه، ويشهد بذلك ما ألفه علماء الأمامية سَددهم الله تعالى ورواتهم حول فضل القرآن وخصائصه وعلومه ومزاياه وفي شتى المجالات. نذكر منها على سبيل المثال:

- كتاب فضل القرآن ليونس بن عبد الرحمن من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام.
- كتاب فضل القرآن لمحمد بن الحسن الصفار المتوفي سنة ٢٩٠هـ.
- كتاب نوادر القرآن لعلي بن إبراهيم بن هاشم في القرن الثالث الهجري.
- كتاب فضل القرآن لمحمد بن مسعود العياشي في القرن الثالث الهجري.
- كتاب فضائل القرآن لأحمد بن محمد بن عمار المتوفى سنة ٣٤٦ هـ.

كما عقد جمع من علماء الأمامية أبوابا خاصة حول القرآن في كتب الحديث مثل:

- كتاب فضل القرآن في الجزء الثاني من (أصول الكافي) للكليني.

- كتاب فضل القرآن في الجزء الثاني من موسوعة من لا يحضره الفقيه.
- كتاب القرآن في الجزء الرابع من موسوعة (وسائل الشيعة).
- كتاب القرآن في الجزء الاول من (مستدرك وسائل الشيعة).
- كتاب القرآن في الجزء الثاني والتسعين من موسوعة (بحار الانوار).

وهذا يدل على مدى اهتمام الشيعة بالقرآن الكريم، كما أن التاريخ يشهد لهم مدى تفانيهم وبذلهم لأرواحهم على مدى التاريخ في سبيل القرآن الكريم والعترة الطاهرةعليهم السلام. وقبل كل ذلك كان الإمام أمير المؤمنينعليه السلام أول من سمع القرآن من رسول اللهصلى الله عليه وآله وخالجته آياته، وهو أول من جمعه بأمر رسول اللهصلى الله عليه وآله وكتب تفسيره وتأويله وشأن نزوله كما في متضافر الأدلة[٧].

أما في علوم التفسير فكان للشيعة القدم الأول في ذلك، وقد ذكر الشيخ الذهبي من علماء الأزهر في كتابه (التفسير والمفسرون) عددا من ذلك بعد أن استعرض بنحو مجمل من كتب في العصر الإسلامي الأول، وعد على رأسها التفسير، ثم قال في كتابه: وقد عد السيوطي في (الإتقان) من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم، وممن سماهم أبن مسعود، وأبن عباس، وآبي بن كعب، وزيد بن ثابت وغيرهم.. ثم قال أما علي بن أبي طالبعليه السلام فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير[٨].

وفي مكان أخر قال: جمع عليعليه السلام الى مهاراته في القضاء علمه بكتاب الله، وفهمه لأسراره وخفي معانيه فكان اعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد روى عن ابن عباس قال: ما أخذت تفسير القرآن فعن علي ابن أبي طالبعليه السلام[٩].

وليس الذهبي منفردا في هذا القول، فقد ذكره الكثيرون غيره[١٠].

(٧) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص٣١٦ -٣١٧ -الذريعة: ٤/ ٢٣١.
(٨) التفسير والمفسرون ١/ ٦٣ -٦٤.
(٩) التفسير والمفسرون:/ ٨٩ -٩٠.
(١٠) بين الجدران: ١/ ١٧ -١٨، دائرة المعارف الاسلامية الشيعية: ١١/ ٥٢.

أما أول من صنف في التفسير فهو ترجمان القرآن عبد الله بن العباس المتوفى سنة ٦٨، ثم تلميذه سعيد بن جبير الذي قتله الحجاج عام ٩٤ [١١] وقيل: سنة ٩٥ وكان من المشهورين في التفسير، بل روي عن قتادة أن سعيداً كان اعلم معاصريه بالتفسير[١٢] وأسند أبو عمر الكشي في كتاب الرجال عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: سعيد بن جبير كان ياتم بعلي بن الحسين عليه السلام، وكان علي بن الحسين عليه السلام يثنى عليه. وما كان سبب قتل الحجاج له الا على هذه الامر -يعني التشيع وكان مستقيما[١٣].

وقد اهتم الشيعة اهتماما كبيرا بالتفسير، وكتبوا فيه الكثير من الكتب، منها في تفسير كل القرآن، ومنها في بعضه.

المبحث الثالث: القرآن والعترة عليهم السلام:

إن من يتتبع احاديث العترة النبوية الطاهرة يجدها تسير جنبا الى جنب مع القرآن، تتمسك بآياته، وتستدل بإشاراته، كما أن القرآن الكريم نفسه يشيد بمواقفهم وأقوالهم عليهم السلام إذ وصفهم بالطهارة من الرجس المعنوي والمادي ذلك الوصف المؤكد الذي يقتضي تنزيههم عن أي خطأ وخلل، ومخالفة للكتاب، بل يقتضي كونهم مع القرآن في هدف واحد، وعلى جادة واحدة، ولا غرابة إذا قيل: إنهم عليهم السلام ورثوا الكتاب وعلمه وفهمه وفقه أسراره ومقاصده وأبعاده وبطونه دون غيرهم، فذلك أمر قد جرى بعض منه في الانبياء السابقين و اوصيائهم كما يصرح القرآن الكريم بذلك وقد صرح أئمة أهل البيت المطهرون عليهم السلام بهذا الامر في تصريحات مستقلة، مثلما روي عن الأمام موسى بن جعفر عليه السلام إذ قال: (نحن الذين اصطفانا الله عز وجل، وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء)[١٤] على ان العقل يحتم مثل هذه الوراثة للكتاب

(١١) الدريعة: ٤/ ٢٣٣.

(١٢) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية: ج ١١، ص ٥٥ انظر الاتقان في علوم القرآن: ج٢، ص١٢٣٤ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: ص٣٢٤.

(١٣) رجال الكشي: ج١، ص٣٣٥.

(١٤) أصول الكافي: ج ١، ص٢٢٦، ح٧.

وعلمه وفهمه وفقهه إذا لولا الصفوة التي ترث مسؤولية الحفاظ على الرسالة لضاعت الرسالة، فهم تحملوه وحملوه كمسؤولية كبرى، وتجشموا في سبيل المحافظة عليه عناءً كبيرا، وقاتلو الناس على تنزيله، ثم قاتلوهم على تأويله، ثم إن البراهين والأدلة العملية التي قدمها النبيﷺ والأئمةعليهم السلام في مجال تفسير القرآن وفك رموزه وبيان بطونه وأبعاده بنفسها خير شاهد على ذلك، ونذكر هنا جملة من الأحاديث الواردة بهذا الشأن تيمنا وتبركا.

فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللهﷺ: (إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عَلَيَّ الحوض)[١٥] وعن أبي جعفرعليه السلام قال: (قال رسول اللهﷺ : أنا أول وافد عزيز على الجبار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي، ثم أمتي ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وأهل بيتي)[١٦] وقالﷺ: (هم مع القرآن والقرآن معهم ولا يفارقونه حتى يردوا علي الحوض)[١٧] وفي الوقت الذي تدل (المعية وعدم المفارقة) على التلازم وعدم الافتراق أو الاختلاف في كل شيء حتى يوم القيامة فإنها تدل على ثلاثة أمور أخرى:

أولا: أن ألأرض لا تخلو من إمام معصومعليه السلام كما لا تخلو من القرآن.

ثانيا: أن بالقرآن وحده وبالعترة وحدها لا تتحقق الغايات الإلهية في الوجود بل بهما معا وعليه تبطل المقولة (حسبنا كتاب الله).

ثالثا: بطلان نظرية ولادة خاتم الأوصياء والأئمة صلوات الله عليهم في أخر الزمان بل هو مولود حي قائم بأمر الله سبحانه إذ لا يعقل أن ينفك زمان الامامة عن القرآن الكريم ومن هنا تواترت الأخبار الدالة على كونهمعليهم السلام عدل القرآن والثقل الذي أوصى به النبي الأعظمﷺ، والدال على تلاحمهم المطلق مع القرآن فكرا وقولا وعملا،

(١٥) مستدرك الوسائل: ج ٧، ٢٥٤، ٢٥٥، ح ٨١٨١، باب ٤٧ من كتاب الزكاة بحار الأنوار: ج٢، ص١٠٠، ح ٥٩.
(١٦) وسائل الشيعة: ج٦، ص١٧٠، ح٢، باب ٢ من أبواب قراءة القرآن.
(١٧) بحار الأنوار: ج٢٢، ص١٥٠، ح١٤٢.

بل هم القرآن الناطق الذي لا ينطق عن الهوى، وقد وردت أكثر من ثلاثين رواية بهذا الشأن من طرقنا، وأكثر من ستة عشر رواية من طرق الجمهور تدل على ذلك، كما أورده العلامة البحراني[١٨] وغيره وقد اتفق اصحابنا على أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبيﷺ والأئمة الطاهرينعليهم السلام، وحرموا القول فيه بالرأي والاجتهاد، وهذا ما رواه العامة أيضا عن النبيﷺ أنه قال: (من فسر القرآن بنفسه وأصاب الحق فقد أخطأ)[١٩] والظاهر انهم التزموا من حيث الكبرى وإن خالف جمع غير قليل من مفسريهم الالتزام بذلك من حيث الصغرى. خصوصا ما يتعلق بالآيات الواردة بشأن اهل البيتعليهم السلام وبيان فضائلهم ومقاماتهم الربانية ولعلمائنا الأعلام في علمي التفسير والأصول كلام مفصل في بيان المقصود من التفسير بالرأي وحل بعض التشابه البدوي الذي قد يتصوره البعض تعارضا وتخلص في أمرين:

أحدهما: تفسير القرآن اعتمادا على الظنون والأستحسانات الخاصة كتفسير أولي الأمر في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[سورة النساء: ٥٩] بالحكام الظلمة مع أن العقل يأبي أن تكون طاعتهم واجبة كطاعة الله ورسوله.

ثانيهما: تفسيره اعتمادا على أقوال الصحابة والتابعين والإعراض عن تفسير المعصومينعليهم السلام ومما يشهد للملازمة الدائمة بين القرآن والعترة الطاهرة حديث الثقلين المتواتر جيلا بعد جيلا فقد -أورد الجمهور في كتبهم من روايته عن الصحابة الذين سمعوه من رسول اللهﷺ أكثر من ثلاثين صحابيا، وبقي على ذلك متواترا في كل عصر إلى العصر الراهن، ونص الحديث هو قولهﷺ (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)[٢٠] .

(١٨) الرهان في تفسير القرآن: ج١، ص٩ -١٥ و ٢٦ -٢٨.

(١٩) التبيان: ج١، ص٤، مقدمة المؤلف.

(٢٠) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص٣٤، ح٣٣١٤٤، باب ٦ من أبواب صفات القاضي وما يجوز أن يقضى به و انظر الخصال: ج ١، ص٦٥، ج٩٧ سنن الترمذي: ج٥، ص٦٦٣، ح٢٧٨٨ مسند أحمد: ج٣، ص١٤ و ١٧ و ٢٦ المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٤٨.

وقد تضافرت الأدلة من الآيات والروايات فضلا عما يحكم به العقل وقام عليه الإجماع أن أهل البيت عليهم السلام عدل القرآن الكريم، وهما القيمتان المتكاملتان والمتلاحمتان في الجوهر والمضمون، ولا يفصل بينهما مكان أو زمان أو رأي أو مفهوم ولا يوزعهما فكر أو تطبيق[٢١]. وهناك روايات كثيرة تبين فيمن نزل القرآن.

فعن أبي الجارود قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: (نزل القرآن على أربعة أرباع، ربع فينا، وربع في عدونا، وربع في فرائض وأحكام، وربع في سنن وأمثال، ولنا كرائم القرآن)[٢٢] وعن عبد الله بن سنان قال: (القرآن جملة الكتاب وأخبار ما يكون، والفرقان المحكم الذي يعمل به. وكل محكم فهو فرقان)[٢٣] وفي رواية الأصبغ بن نباته قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: (نزل القرآن أثلاثا، ثلث فينا وعدونا وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام)[٢٤].

ولا تنافي بين الأخبار لأن بناء هذه التقسيم ليس على التسوية الحقيقية، ولا على التفريق من جميع الوجوه، بل على أصل التصنيف، فإطلاقه لا ينفي ما عداه لكونه ليس في مقام البيان، وعليه فلا بأس باختلاف الأخبار بالتثليث والتربيع، ولا بزيادة بعض الاقسام على الثلث والربع أو نقصه عنهما، ولا دخولهما بعضهما على بعض. هذا وقد وردت أخبار جمة عن أهل البيت عليهم السلام في تأويل الكثير من آيات القرآن بهم وبأوليائهم وأعدائهم، حتى أن جماعة من أصحابنا صنفوا كتبا في تأويل القرآن، على هذا النحو، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام في التأويل آية آية إما بهم أو بشيعتهم أو بعدوهم على ترتيب القرآن، وقد روي في الكافي وفي تفسيري العياشي وعلي بن إبراهيم القمي والتفسير المسموع من الأمام أبي محمد الزكي أخبار كثيرة من هذه القبيل[٢٥].

(٢١) انظر علوم القرآن عند المفسرين: ج١، ص٢٠٤، تقريب القرآن ١/ ٢٨.
(٢٢) تفسير العياشي: ج١، ص٩، ح١.
(٢٣) تفسير العياشي: ج١، ص٩، ح١.
(٢٤) تفسير العياشي: ج١، ص٩، ح٣، و (ظ): ١/ ١٠ ح ٧.
(٢٥) انظر علوم القرآن عند المفسرين: ج١، ص٢٠٩، أصول الكافي: ج ١، ص٤١٢، ح ١،=

المبحث الرابع: المسار التاريخي لعلوم القرآن عند مفسري الشيعة:

لقد أدركت الطلائع المؤمنة من أصحاب رسول الله ﷺ أهمية العلم، ووعت أن الشخصية الإسلامية عمادها الأساس هو التوحيد، وأن طريق التوحيد هو العلم، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[سورة الزمر: ٩] وتسابقت نيلا للرفعة والمنزلة السامية لديه ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[سورة المجادلة: ١١].

وفهم المسلمون الفرق بين الجهل والعلم باعتبارات القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة الروم: ٥٩] في الوقت الذي أشاد الله تعالى بشهادة أهل العلم على وحدانيته: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[سورة آل عمران: ١٨].

وقد كان رسول الله ﷺ النمير العذب والسلسل الرقراق لمختلف العلوم والمعارف، فأحاط به جمع من الصحابة الأجلاء، يقتبسون منه سناء العلم، ويستضيئون بهداه غير أن العلوم القرآنية لم تدون جميعا عند تدوين القرآن في العهد الرسالي وذلك لأسباب عديدة منها: وجود رسول الله ﷺ بين المسلمين يوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه، فهو ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[سورة الشعراء: ١٩٥] ومنها قدرتهم على الفهم المباشر والاستيعاب الصحيح لفصاحتهم وبلاغتهم العربية الأصيلة ولأن القرآن الكريم ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾[٢٦] ومنها

=تفسير الصافي: ج١، ص٢٢ -٢٤، و ١/ ٢٤ و١/ ٢٤ -٢٦، تفسير الإمام العسكري: ص٨٣، ح٤٦، بحر الأنوار: ج٢٦، ص٢٧٢، ح١١، ج٢٥، ص٢٠، ح٣١.

(٢٦) للمزيد انظر: الاتقان، السيوطي، ١/ ١٦١، ج ٢، ص ١٢٢٧، الارشاد: ج١، ص٣٥، بحار الأنوار: ج٤٠، ص١٧٦، ح٦١. اصول الكافي: ج٢، ص٨، ح١، و ٢، عوالي اللآلي: ج٤، ص١٢١، ح٢٠٠ -عوالي اللآلي: ص١٢٤، ٢٠٨، مفاتيح الغيب: ص١٤، موسوعة اهل البيت عليهم السلام الكونية: ج١، ص ٢٣٣، الخصال، ج١، ص٢٥٧ -الإرشاد: ج١، ص٣٤.

عسرة الكتابة وندرة أدواتها وقلة الكتاب للتعلم والتعليم، وبعد أن اختار الله سبحانه وتعالى الصادق الأمينﷺ إلى جواره تبارى المسلمون الغيارى على الدين في تدوين العلوم وتصنيفها حسبما توافرت لديهم من الوسائل والأدوات، ولعل من أهم الأسباب التي دفعتهم إلى التدوين هي: الرغبة في أن يكونوا مصاديق تتحقق فيهم إرادة الله الأزلية في حفظ القرآن وتخليده في الأمة، وتزكية ما لديهم من علم بنشره بين المسلمين، فإن في نشره زكاة له، فضلا عن نيل الثواب العظيم في طلب العلم ونشره وترويجه.. هذا وقد كان مولانا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالبعليه السلام الرجل الأول ومحرز لقب السبق في مضمار تدوين القرآن وتفسيره وبيان علومه ولقد أبان القرآن الكريم عن منزلة أمير المؤمنينعليه السلام ومقامه في أية المباهلة في قوله تعالى ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٦٢]. فقد أجمع المفسرون على أن المقصود من الأبناء في الآية الشريفة هما الحسنانعليهما السلام، والنساء فاطمةعليها السلام ، والأنفس رسول اللهﷺ وعليعليه السلام إلى غيرها من الآيات الشريفة والروايات المتواترة كما في حديث الثقلين[٢٧] والمنزلة[٢٨-٢٩].

مفسرو الشيعة:

من الصحابة الأوائل في التفسير والتأويل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (ت٦٨هـ). وهو أول من أملى في تفسير القرآن الكريم، وقد حكي عن أبي الخير قوله في طبقات المفسرين عند ذكره أبن عباس: فهو ترجمان القرآن وحبر الأمة،

(٢٧) قولهﷺ: (أني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الأخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وإنها لن حتى يردا على الحوض) انظر مينذ أحمد: ج٣، ص١٤.

(٢٨) قولهﷺ: (انت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي) انظر الكافي: ج٨، ص١٠٧، ح٨٠.

(٢٩) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٨٤.

ورئيس المفسرين[٣٠] وقال الزركشي: وصدور المفسرين من الصحابة علي عليه السلام ثم ابن عباس، الا أن ابن عباس كان اخذ عن علي عليه السلام[٣١]. ومن المفسرين جابر بن عبد الله الأنصاري (ت ٧٤ هـ) الذي عده أبو الخير في طبقات المفسرين من الطبقة الأولى، ومنهم عبد الله بن مسعود، ومنهم الصحابي الجليل أبي بن كعب، وهو أول من صنف في فضائل القرآن، وهو سيد القراء، وعده أبو الخير في الطبقة الأولى من المفسرين وغيرهم كثير[٣٢].

المبحث الخامس:

منهج السيد محمد الحسيني الشيرازي قدس سره في التفسير:

لعل (التفسير الشمولي) هذا أفضل أنواع التفسير وأكمله وأدقُّه لما له من خصوصية فهم القرآن في أصل معناه أو حدوده أو مصداقه الأكمل على ميزان أهل البيت عليهم السلام ورؤيتهم، كما أن القرآن يمثل الميزان الذي يميز كلامهم عليهم السلام من غيره المشتبه على الناس في السند أو في الدلالة، وهذا ما قد نجده جليا في تفسير **المرجع الديني الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (أعلى الله مقامه)** حيث جمع بين اللغة والعقل والنقل الوارد عن المعصومين عليهم السلام في فهم معاني الآيات وكشف مضامينها هذا ولا يخفى عليك أن إعجاز القرآن لاينحصر بألفاظه وظواهره، بل في رموزه وإشاراته ولطائفه وحقائقه، ففي كل سورة بحار من المعارف، وتتجلى في كل آية منه أنوار من الحقائق والهدايات، وكيف لا يكون كذلك وقائله عز وجل لا نهاية لعلمه وكماله، ولا حد لعظمته وجلاله، وما حصل من تحديات إنما هو من مقتضيات الاستعدادات لطفا بالعباد، لا أن يكون تحديدا منه، وربما يتوصل من يراجع مختلف أنحاء التفاسير

(٣٠) البرهان في علوم القرآن: ج٢، ص١٥٧، ج١، ص٨.

(٣١) لمعرفة المزيد انظر: تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: مقدمة الكتاب و ص٣٢٣، مجمع البيان: ج١، ص٧ التفسير والمفسرون: ج١، ص١٠٢ -١٠٣.

(٣٢) انظر لسان العرب: ج٥، ص٥٥، (فسر) مجمع البيان: ج١، ص١، كلمة في التفسير دائرة المعارف الاسلامية الشيعية: ج١١، ص٤٧.

أنه فسر كل صنف من العلماء القرآن بما هو المأنوس عندهم، فالفلاسفة والمتكلمون فسروه بمذاهبهم من الآراء الفلسفية والكلامية أوالعرفاء والصوفية على طريقتهم، والفقهاء فسروا ما يرتبط بغرضهم في فقه الأحكام والمسائل، والمحدثون فسروه بخصوص ما ورد من السنة الشريفة من الآيات، كما أن الأدباء فسروه من زاويتهم الأدبية، وهكذا أهل المعارف والعلوم الإنسانية والطبيعة ومع كل ذلك يظهر العجب في انه كلما كثر في هذا الوحي المبين والنور العظيم من هذه البيانات والتفاسير فهو على كرسي رفعته لا ينقص، فما نجده من مزايا وخصوصيات لبعض التفاسير إنما هي قضية نسبية تعتمد على ذكاء المفسر وسعة اطلاعه وطول باعه في العلوم المختلفة وهذا ما امتاز به الأمام الشيرازي تغمده الله إذ له في كل فن معرفة وله في مختلف مجالات الثقافة والفكر رؤية ومنهج، ومن هنا كانت له إشراقات و إلماعات ربما لم يصل إليها قبله مفسر أو يسبقه أليها ذهن عالم أو أديب، كما ستجد ذلك جليا من خلال مطالعتك لهذا السفر القيم.

الطريقة الجديدة في تفسير القرآن الكريم:

إن مفسري القرآن وبالأخص القدامى منهم أبلوا بلاء حسنا في تفسير الآيات الشريفة المتعلقة بالعقائد والأحكام، ولا سيما مواضيع التوحيد والشرك والنبوة والإمامة ونحوها، والتي تشكل جوهرة الإسلام، والعنصر الذي اتفقت عليه الشرائع الإلهية، لكن الملحوظ أن منهج القدماء قام على أساس التسلسل السوري في القرآن إذ أخذوا في الشيء الواحد على مختلف السور والآيات، فصار الطالب يحتاج إلى المزيد من الجهد والتتبع حتى يحصل على الحقيقة الكاملة الجلية على الرغم من وجود نقاط قوة عديدة في هذا النهج، أما طريقة التفسير الجديد فانها جاءت تكملة لجهود المتقدمين و إغناءً لتجاربهم ودراساتهم لتعطي لنا صورة بالغة الوضوح ومكملة لما أعده السابقون من المفسرين، وهذا التفسير يسمى (التفسير الموضوعي) وهو يُعنى بتفسير آيات القرآن الكريم بحسب الموضوعات والمفاهيم، أي بحسب التبويب والتقسيم

الموضوعي للقرآن الكريم وتتلخص هذه الطريقة في جمع الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد في مكان واحد، ثم تصنيفها على حسب التسلسل الموضوعي، ثم القيام بعملية جمع بين الأصناف لاستنباط نظرة واحدة متكاملة وفكرة جامعة شاملة من مجموع هذه الآيات، خصوصا أن القرآن الكريم جاء(تبياناً لكل شيء)[٣٣] وهنالك فوائد أخرى منها الوقوف على النظرة القرآنية متكاملة وفهم حيثيات بعض الآيات التي يصعب علينا فهمها لابتعادنا عن زمن نزول النص ولهذا قيل: (إن القرآن يفسر بعضه بعضا)[٣٤] وورد عن مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام تأكيد لذلك: (كتاب الله تبصرون به و تنطقون به وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض)[٣٥] وهذا التفسير الشريف الذي نبحث عنه وان كان قد جارى طرق القدامى في نهجه وطريقته ألا أنه حاول فيه المصنف (أعلى الله مقامه) أن يقترب بعض الشيء إلى الطريقة الجديدة، فسعى إلى إيجاد ربط بين ألآيات المختلفة، وأشار إلى الجهات الأخرى المكملة لمعاني الآيات المفسرة في موردها، وفي بعضها أشار إلى عنوانها، وبذلك يكون قد سهل على القارئ الوصول إلى بعض الحقيقة الكاملة وكان موفقا في ذلك لأن من أصعب ما يجده الكاتب في مثل هذا النوع من الكتابات أن يجمع المعاني المتعددة في عبارة موجزة ومختصرة، خصوصا و أنه يفسر القرآن.

القرآن يفسره الزمان:

إن تطور الزمن وتقدم العلوم أكسب المحققين والمفكرين نمطا جديداً من الرؤية، حيث تتأكد هنا أهمية وضرورة التفسير الموضوعي، فقد أصبح كل فريق من هؤلاء المفكرين والمحققين وبالاعتماد على هذا النوع من التفسير يستخرج من القرآن الكريم مفاهيم وأمور علمية جديد تطابق اختصاصه، فا الاستفادة من القرآن

(٣٣) بحار الأنوار: ج٥٤، ٢١٨.
(٣٤) نهج البلاغة: ص١٩٢، الخطبة ١٣٣.
(٣٥) نفسه.

الكريم على الأصعدة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية في تصاعد واتساع مستمرين، وقد أستخرج المحققون الإسلاميون المعاصرون، بفضل ما أوتوا من الطرق الحديثة المبتكرة في البحث العلمي والدراسة والتحليل، حقائق مهمة من القرآن الكريم ربما لم تخطر على بال المفكرين والمحققين القدامى، فأضافوا على علوم القرآن الكثير، كما اكتشفوا من المعاني والمضامين الشيء الكثير. من هنا اتفقت الكلمة على أن الاستفادة من القرآن الكريم لا تنحصر بالعرفاء والفقهاء والفلاسفة وأرباب العلوم القديمة والإلهيات خاصة.

إن استنباط نكات دقيقة وجديدة من القرآن من قبل علماء الطبيعة والرياضيين ورواد العلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم فلسفة التاريخ خير دليل وأفضل شاهد على أن هذه المعجزة الخالدة تنطوي على بطون عديدة وأبعاد متنوعة، إن مرور الزمن وتقدم العلوم لم يمنحها علماء الطبيعة وحدهم إمكانية استنباط حقائق وأبعاد مهمة وجديدة عن القرآن في حقول علوم الطبيعة وخلقة الإنسان والأرض والسماء وغيرها من الظواهر الطبيعية، بل ومكن المفسرين أيضا من استخراج حقائق مهمة وجديدة من هذا السفر الإلهي الخالد جنبا إلى جنب مع توسع العلوم واتساع نطاق المعارف وتفتحها وظهور المناهج العلمية الإنسانية الجديدة والآن نحن نشاهد شروع التحقيقات العلمية حول القرآن من طريق أجهزة الحاسوب (الكمبيوتر) وقد كشفت للأجيال الحاضرة والقادمة الكثير من الحقائق والآفاق التي عجز العقل والذهن البشري العادي عن اكتشافها والتوصل إليها، بمجرده فتفتح له من العلم أبواب وأبواب، قال سبحانه و تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] وقال عز من قائل ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[سورة الجاثية: ٢٠]. وجاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: (كثرة النظر في العلم يفتح العقل)[٣٦] لكن المشكلة في البشر أنفسهم

(٣٦) موسوعة أهل البيت الكونية: ج٢، ص٣٥٢.

لعجزهم وقصورهم أو تقصيرهم في الإمعان فيه وأكتشاف أسراره و غوامضه، لكن كلما سعى البشر في فهمه ودراسته أوصل إلى مطلوبه لأن القرآن كتاب هدى ونور، ومن الهدى الإيصال إلى الطريق ولعل مما يؤيد ذلك ما ورد من بعض الأخبار من أن القرآن الكريم يفسره الزمان، والذي قد يكون من معانيه أمور:

١. أن القرآن الكريم صالح لكل عصر وزمان.

٢. أن تطور العلم والتكنولوجيا الحديثة كشف الكثير من الحقائق القرآنية، ولعل من ذلك أن الشمس وردت في القرآن الكريم ٣٢ مرة وبمعان فلكية رائعة تحكي الحقيقة العلمية بكل وضوح فإن ما يتوصّل إليه العلماء في مجال الفلك في هذا العصر الحديث المليء بالاكتشافات الباهرة حول هذا الجرم السماوي هو يؤكد ويؤيد يوما بعد أخر ما ذكره ديننا الإسلامي حول الشمس في جميع خصوصياتها.

٣. أن عقول البشر في تطور ونمو، الحياة السائرة نحو المزيد من العلم والمعرفة والتجارب تتكاثر على كشف الكثير من الإسرار فكلما تطور الزمن وتطور معه الإنسان، توصل إلى حقائق وأبعاد جديدة في فهم الآيات واستنار يهديها فكل جيل منهم يختلف عن السابق كما سيختلف عن اللاحق حتى تكتمل العلوم باكتمال الإنسان في عصر ظهور ولي الله الأعظم عجل الله فرجه الشريف فحينئذ يصل إلى درجات سامية من المعرفة والفهم والإدراك.

تفسير تقريب القرآن إلى الأذهان:

مهما كانت الدوافع الكامنة وراء كتابة التفسير وضمن الشروط التي ذكرناها فيما تقدم والتي يجب أن تتوفر في المفسر فإن ما كتب في هذا المجال يعد إنجازاً علميا له خصائصه ومميّزاته، حيث أن كل تفسير كتب، وضمن الشروط الموضوعة والمقررة لذوي الاختصاص -يضيف معلومات جديدة وفنّا وذوقا أخر لهذا العلم الذي لا ينضب، لكن تبقى لمن اتخذ أهل البيت عليهم السلام نهجا وطريقا ومدرسة وتألقا وعلوا وارتفاعا فيما يستنبط من أراء ويبني من أفكار ويؤسس من رؤى، السمة

العليا في ذلك، وهذا ما أتسم به السيد الراحل أعلى الله مقامه وتميزت به كتبه الوفير، وخصوصا هذا التفسير، حيث زانته من ضمن ما زانته اعتماد المطلق على ما ورد منهم عليهم السلام، مسلّما لهم منقادا إليهم فيما يقولون ويعملون ويهذبون، وهذه سمات لا ينالها الاَ الفائزون الناجحون، والعالمون الصادقون لأنهم صلوات الله عليهم باب الله الذي منه يؤتى، وهم عيبة علمه، وحبله المتين، وصراطه المستقيم وعندهم عليهم السلام جوامع الكلم والعلم كما ورد عن ابن العباس أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (أعطاني الله خمسا، وأعطى عليا خمسا، أعطاني جوامع الكلم، وأعطى عليا جوامع العلم)[٣٧].

فالاعتماد عليهم صلوات الله عليهم يكشف الكثير من الحقائق والمعارف و تطور الزمن والاكتشافات حيث أشاروا صلوات الله عليهم وبينوا جميع الأمور للبشرية، وبقي علينا أن نجدَّ أكثر ونسعى لإظهار هذه الحقائق والاغتراف من منهلهم العذب، وهذا لا يأتي إلا بالمعرفة التامة لأهل البيت عليهم السلام، وقد ورد عن الصادق عليه السلام: (فمن عرف من أمة محمد صلى الله عليه وآله واجب حق إمامه، وجد طعم حلاوةإيمانه،... إلى أن قال: حجج الله ودعاته ورعاته على خلقه، يدين بهديهم العباد، وتستهل بنورهم البلاد، وينمو ببركتهم التلاد.. فليس يجهل حق هذا العالم إلاّ شقي، ولا جحده إلاّ غوي، ولا يصدّ عنه إلا جري على الله جل وعلا)[٣٨] فمن هنا كانت مدرسة أهل البيت عليهم السلام هي الأولى والأخيرة في هداية البشر ونقلهم إلى شاطئ الأمان، والتأريخ هو خير دليل وشاهد على ذلك، وأعظم مدرسة للإسلام كانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام حيث كانت جامعة كبرى شملت كل العلوم والفنون والمعارف، وقد خرَّجت الكثير من العلماء الذين قدّموا للبشرية والحضارة الإنسانية بكل إخلاص

(٣٧) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٨، ح٣١، ج٢٦، ص٣٠، ح٤٢، ج٢، ص٢١٤، ح٣، ج٢٦، ص٣١، ح٤٤.

(٣٨) أصول الكافي: ج١، ص٢٠٣، ٢٠٥، ح٢، إلزام الناصب: ج٢، ٣٣٣ بحار الانوار، ج٢٥، ص٣٦٤، ح١.

وتفان الشيء الكثير، فإنّ الذي يتتبع كتب الرجال وتأريخ الأعلام يجد أن لعلماء الشيعة الذين ورثوا علوم أهل البيت عليهم السلام دورا أساسيا ومهما في تأسيس فنون المعرفة.

السيد الشيرازي أعلى الله مقامه في تفسيره:

إن الأمم الحيّة والشعوب اليقظة في كلّ عصر من عصور التأريخ وعلى امتداد الأرض المعمورة تعرف بتقديرها للعلم واحترامها للعلماء والأخذ عنهم والاغتراف من مناهلهم العذبة الروية، فهم المقياس الحق لحياة الأمم والشعوب أو موتها، وأمّتنا الإسلامية أشرف الأمم، ويزخر تأريخها بالمكانة السامية التي يحتلها العلماء في نفوس الناس، ونجد القرآن الكريم يعطي العلماء منزلة تجعلهم في مصاف الملائكة المنزهين فيقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[سورة آل عمران: ١٨] كما نراه جل وعلا يمنحهم منزلة الخشية منه سبحانه وتعالى على سبيل الحصر، فيقول جلّ وعلا ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[سورة فاطر: ٢٨] وهو بعد هذا وذاك يرفعهم درجات فيقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[سورة المجادلة: ١٢] إلى الكثير من الآيات القرآنية التي تكشف عن مكانة العلماء عند الله سبحانه وتعالى.

وهكذا برز العلماء، وخرجت الحوزات العلمية المقدسة للفطاحل من الذين تركوا أثاراً وتراثا اسقوه من فكر ونهج أهل البيت عليهم السلام، ومن بين هؤلاء النوادر الذين أثروا المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم وعلمهم صاحب هذا التفسير العظيم (تقريب القرآن إلى الأذهان) سماحة المرجع الديني الكبير السيد محمد الحسيني الشيرازي (أعلى الله درجاته)، المولود في عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٨ م) و المتوفّى في شوال ١٤٢٢هـ، (٢٠٠١م) فهو (رضوان الله عليه) من أجلى مصاديق قول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله (أذا مات المؤمن الفقيه ثلم في الإسلام ثلمه لا يسدها شيء)[٣٩] لقد تميز الإمام الشيرازي قدس سره بفكره المعطاء الغني المختصر بالتجارب، والمفعم بالنضج والنظرة

(٣٩) أصول الكافي: ج١، ص٣٨، ح٢.

الواقعية إلى الأمور، والأصيل المستلهم من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، والذي يعالج شتى القضايا الحيوية ومشاكل العصر ورغم الحياة الصعبة والقاسية جدا التي كان يعيشها الإمام الراحلﷺ طوال حياته الشريفة والظروف التي ألمت به من كل حدب وصوب من البعيد وربما القريب كان كما قالوا عنه: نادرة التأليف في التأريخ وسلطان المؤلفين[٤٠] حيث عرف بكثرة الإنتاج والعطاء الفكري والعلمي والتربوي، حيث تنوعت مؤلفاته من حيث المادة العلمية، وبلغت ألفا وثلاثمائة كتاب وكتيب وموسوعة، فشملت الفقه والأصول والفلسفة والكلام والبلاغة والنحو وسائر العلوم الحوزوية من جهة، والسياسة والاقتصاد والاجتماع والنفس والحقوق والإدارة والقانون والبيئة والأخلاق والتاريخ والطب وإدارة الدولة الإسلامية وسائر العلوم الإنسانية المستحدثة من جهة أخرى حتى عجزت أصابعه من الإمساك بالقلم من كثرة ما كتب وكان (طاب ثراه) لا يضيع لحظة واحدة من عمره الشريف دون الاستفادة منها.

وكانﷺ بارعا بعلوم التفسير:

وتفسير تقريب القرآن إلى الأذهان هو حصيلة جهد مبارك قام به السيد المؤلفﷺ حيث أسهم في إغناء التراث الحضاري والمكتبة الإسلامية، فيعد من مصادر التفسير في مختلف شؤون المعرفة، إمتاز هذا التفسير الشريف بجملة أمور قلما حظي بها غيره من التفاسير:

أولا: إن السيد المؤلفﷺ فضلا عن كونه مرجعا وزعيما دينيا متميزا فإنه بعد أحد رجالات الفكر المعاصرين الذين نظّروا للعالم البشري في مجالات مختلفة حيث أنه (طاب ثراه) جمع بين الفكر الجديد والقديم في التفسير.

ثانيا: اعتمد السيدّ المؤلِفﷺ بشكل أساسي في تفسيره على منهجية أهل

(٤٠) لقب أطلقه عليه الاتحاد العام للكتاب العرب بدمشق الشام خلال الحفل التأبيني الذي أقيم في سوريا في الحوزة الزينبية (مجلة النبأ العدد -٦٦ -١٤٢٣ هـ ص١٦٨).

البيت عليهم السلام، وعلى الأخبار و الآثار المرويّة عنهم عليهم السّلام مع وضوح في الرؤية ونضوج في الأفكار، وردّ للشبهات التي أثيرت وقد تثار على الآيات الواردة بشأن أهل البيت عليهم السلام.

ثالثا: أن أسلوب الكتاب وطريقة بحثه تمتاز بأنها بعيدة عن العبارات المنمّقة والاصطلاحات المعّقدة، حيث أنه بين المعاني بأسهل الألفاظ والكلمات كما أنه أمتاز بالاختصار وشموليّة المطلب، فكان سهلا ممتنعا على ما يعبرون.

رابعا: التعرّض في تفسير ألآيات الكريمة إلى الدقائق العلمية والأحكام المتعلقة بها كما أنه اعتمد على الجانب التدبري في الآيات واستنباط النتائج وقراءة ما وراء الألفاظ بالاعتماد على نهج أهل البيت عليهم السلام، وهذه سمة هامّة فلما أتسم بها تفسير .

خامسا: الرابط الوثيق بين القرآن والحياة في مختلف المجالات الشخصيّة والعامة والعبادية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، حيث دعا السيد المؤلف دام ظله إلى:

١. الأمة الواحدة لإنقاذ بلاد المسلمين من التفرقة العنصرية والقومية والإقليمية التي هي أساس الحروب والصراعات مستندا في ذلك إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ والآية في منطُوقها اشارات إلى أهم العوامل التي تقوم عليها نهضة الأمة وهي وحدة الهدف ووحدة الطريق والتماسك الداخلي لأن الأمة هي الجماعة من الناس التي تجمع على هدف واحد وعبادة الله سبحانه توحد المناهج والأساليب وتنفي عناصر الفرقة[٤١].

٢. الأخوة الإسلامية لتكون الروابط المعنوية والمحبة بين الناس هي الحاكمة على الأجواء العامة والعلاقات لا الطبقيات والفئات ونحوها مستندا إلى قوله تعالى إنما المؤمنُون أخْوةً)[٤٢].

(٤١) مترجم عن كتاب قصص وخواطر (باللغة الفارسية): ج١، ص١٠٨.
(٤٢) تقريب القرآن ١/ ٦٢.

٣. الحرية الإسلامية لكونها غاية البعثة وهدف الرسل والأنبياءﷺ وخصوصا خاتمهم وسيدهمﷺ مستندا إلى قوله تعالى ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[سورة الاعراف: ١٥٧] فإن النبي الأعظمﷺ خلص الناس من أغلال الاستبداد والجاهلية بصورها المختلفة ومن خصائص هذا التفسير كذلك والتي تضفي عليه طابعا متميزا أخر هو:

أ. في تفسيره للكلمات والحروف المقطعة من القرآن الكريم، حيث أجرى استقراءً لهذه الحروف وقال في مستهل تفسيره عنها: يأتي زمان يدرك الناس هذا الكنز المعنوي، كما أنه لا يمر زمان إلا ويدرك الناس كنوزا كونية مثل: قانون جاذبية الأرض.. وفي ذلك يقولقدس سره: وهذا رمز بين الله ورسوله والراسخين في العلم[٤٣] وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يقف عند هذا السر العظيم بين الله سبحانه ورسولهﷺ، بل حاول أن يظهر في كل مورد من موارده بعض غموضه، فمثلا في سورة يونس: فسر حروفها المقطعة بالتحدي والإعجاز لكون (المر) التي تفتح بها السورة تركب منها القرآن المعجز، فأنه من جنس كلام البشر لكنه معجز لا يتمكن أحد أن يأتي بمثله، كما أن من جنس المعادن والنبات يتركب الإنسان لكن لا أحد يقدر على أن يأتي بمثله، وكذلك جميع صنع الله سبحانه.. على الاختلاف في أوائل السور.

وفي سورة هود قال عنها أيضا: إنها رموز بين الله والخلق فوسع دلالتها لتشمل عموم الناس وفي سورة الرعد ذكر أن الأقوال في بيان معاني الحروف في فواتح السور تبلغ أربعة عشر قولا لكنه قالقدس سره: الظاهر أنه يمكن الجمع بين كثير منها ولعل جامعها هو الرمزية والتي مال إليها بين الله ورسولهﷺ، فإنه المتيقن من المعاني.

ب. أمتاز تفسيرهقدس سره بالترابط الموضوعي بين معاني الآيات وهذه ميزة قلما فعلها

(٤٣) تقريب القرآن ج١.

مفسر أو وردت في التفسير إلا في موارد قليلة: فمثلا:

الآيات (٢٠٥ -٢٥٤) من سورة البقرة تعرضت إلى مواضع عديدة بعضها يرتبط بأحكام الحج، وبعضها بصفات الجاهلين وتعصبهم، وبعضها بالمنافقين، هذه العنوانات والمواضيع المختلفة التي لا تتراءى للناظر بدءاً، بينها ترابط وثيق يجمعها السيدقدس سره بسياق واحد، فيجمع سابقها بلا حقها وبالعكس حتى يحصل من الكلام حديث عن صورة واحدة بكل ما يحتف بها قرائن وشواهد تكمل المعنى وتثير الغرابة والإعجاب والآيات (٦٣ -٦٥) من سورة المائدة تعرضت إلى صفات المنافقين وأهل الكتاب وأثارهم السلبية على المجتمع، وقد أمتاز في تفسيره لها فضلا عن ذلك كله أوجد ترابطاً موضوعيا بين تفسير أول سورة وآخر سور من القرآن الكريم، مما يجعل سور القرآن وآياته منظومة واحدة مترابطة كجملة وحدة نظّمت في غاية الإعجاز في اللفظ والمعنى والإحكام والإتقان(٤٤).

ت. أورد السيد المؤلفقدس سره أسباب تسمية السور قبل الشروع في تفسيرها، ثم بين الجو العام للسورة والمحور الكلّي الذي تدور حوله آياتها، ثم ذكر مائة وعشرين معنى للبسملة في تفسيره هذا.

وفي سورة الأنفال شرحها بالعلاقة على إحكام ما قبلها وافتتاح ما بعدها من الآيات(٤٥).

وفي سورة يونس عللّها بتلطيف الجو وإعطاء الإنسان الأمن والطمأنينة.

وفي سورة النحل جعلها الحد الفاصل بين الإيمان والكفر والمؤمن والكافر وفي سورة هود علل بما في الاسم المبارك من الخواص المعنوية على نفس القارئ وفي سورة الرعد

(٤٤) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج١٠، ص١٩، ذيل الآية ٤٧ من سورة الانفال.

(٤٥) أنظر التسلسل والربط بين سور الممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم والملك والقلم والحافة، وهكذا بين سور النساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة.

علل الابتداء بالاسم دون الذات لأن الله سبحانه لا يبتدا به وإنما يبدأ باسمه وفي سورة الحجر قال عنها نستعين بالله الرحمن الرحيم في أمورنا وهكذا بذكر معاني عديدة لأصل البسملة، أو بيانا لفوائدها وأغراضها، وهذه ميزة أخرى من مزايا هذه التفسير الذي قلما يحظى بمثله تفسير.

ث. تصدى أعلى الله مقامه للإجابة عن جملة من الشبهات التي قد يثيرها البعض تجاه الإسلام في العقائد أو في الأحكام، ولم يتوقف على بيان المعاني الظاهرة للآيات، وهذا نهج جديد أيضا فمن باب المثال: في بيان معنى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[سورة التوبة: ٢٨]. تعرض إلى فلسفة الحكم بنجاسة الكفار، فبينها واختصرها في أمور ثلاثة.

١. الوقاية الفكرية من الخرافة.

٢. الحماية الاجتماعية من التأثير بسلوكه.

٣. تحفيزه لترك عقيدة الكفر والالتزام بالإسلام.

يقول تدثّر النجاسة في الشريعة في القذارة التي توجب الغسل للشيء الذي يباشر برطوبة، وهذه النجاسة قد تكون لأضرار خارجية كالبول والغائط، وقد تكون لأضرار معنوية كالكافر.

وهذا التفسير الضخم يتسم بالتواضع والإقرار والعجز أمام الله سبحانه، فعنوانه تقريب القرآن إلى الأذهان وليس تفسيره، وقد تكرر من السيد المؤلف نفسه تدثّر في أكثر من مرة بأن ما يذكره من مضامين مجرد معان محتملة وليست بتفسير، وهذه منطق من التزم الحقيقة، العارف بقدر الإنسان وحدوده ومداه[٤٦].

وباختصار: إن ما امتاز به التفسير القريب (تقريب القرآن إلى الأذهان) عن أي تفسير الشيء الكثير، أشرنا نحن إلى بعض مزاياه وخصوصياته، ويجد القارئ الكريم الكثير منها لدى تتبعه وقراءته له.

(٤٦) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج١، ص٢٤، ٢٦، المدخل.

أهم المصادر و المراجع

- الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار ابن كثير، الطبعة الاولى ١٩٧٨ -م١٤٠٧هـ.
- اختيار معرفة الرجال المعروف بـ(رجال الكشي): للشيخ أبي جعفر الطوسي، مؤسسة أل البيت عليهم السلام، ١٤٠٤م.
- إرشاد القلوب: لأبي محمد الحسن بن محمد الديلمي، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٨ -١٩٧٨م.
- الأصول من الكافي: لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، دار صعب ودار التعارف ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠١ هـ.
- أقرب الموارد: لسعيد الخوري الشرتوني اللبناني، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ ش -١٤١٦ هـ. ق.
- بحار الأنوار: للشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء -بيروت، الطبعة الثانية مصححة ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
- البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، دار احياء الكتب العربية -القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٦ .
- بين الجدران: للسيد محمد السويج، دار البيان العربي، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ ١٩٩١م.
- تجريد الاعتقاد: الشيخ ابي جعفر محمد بن محمد الحسن نصير الدين الطوسي، مركز النشر -مكتب الاعلام الاسلامي، الطبعة الاولى ١٤٠٧ق. م.
- التفسير والمفسرون: للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ -١٩٧٦م.
- الجامع الصحيح ((سنن الترمذي)): لابي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، المكتبة الاسلامية.

- الذريعة الى تصانيف الشيعة: للشيخ آغا برزك الطهراني، مؤسسة اسماعيليان- قم.
- علوم القرآن عند المفسرين: لمركز الثقافة والمعارف الاسلامية، مكتب الاعلام الاسلامي، الطبعة الاولى ١٤١٦ق -١٣٧٤ش.
- الفروع من الكافي: لابي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، دار صعب ودار التعارف -بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ.
- كتاب التفسير: لابي النضر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف ((بالعياشي))، المكتبة العلمية الاسلامية -تهران.
- كتاب الخصال: للشيخ الصدوق ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه القمي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية -قم.
- مجمع البيان: للشيخ ابي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار احياء التراث العربي- بيروت، ١٣٧٩ق -١٣٣٩ش.
- المستدرك على الصحيحين: لابي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة -بيروت.
- مستدرك الوسائل: للميرزا حسين النوري الطبرسي، مؤسسة ال البيت عليهم السلام لاحياء التراث -بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ -١٩٩١م.
- مسند احمد بن حنبل، دار صادر -بيروت.
- مفاتيح الغيب: لصدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي، مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي، الطبعة الاولى ١٣٦٣.
- مفردات الفاظ القرآن: للراغب الاصفهاني، الدار الشامية -بيروت، ودار القلم- دمشق، الطبعة الاولى ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.